مُتَصَل سومر – الكوفة

المكونات الثقافية للتشيع في المجتمع العراقي [1]

د. شاكر سعيد

قسم الانثربولوجيا – كلية الاداب

الجامعة المستنصرية

ملخص بحث متصل سومر - الكوفة

في هذا البحث قراءة انثربولوجية للتشيع كثقافة تضم في بنيتها عنصري الموالاة والماساة التي تتركز حول البطل \ الامام . والتشيع كثقافة له جذور تاريخية تعود الى الحضارة الاولى التي نشات في سومر ساعدت بشكل لاشعوري على تنميط مكونات ثقافة التشيع كعقيدة وطقس. وبذا نقرأ التشيع على أربعة مراحل هي:

١ -الولادة في المدينة في عصر النبي والنمو في عصر علي.

٢ -التبلور بعد مقتل الحسين (مرحلة الاحتجاج الثوري).

٣ -النضج في عهد الصادق (الاحتجاج الثقافي والفقهي).

٤ -الامتداد بعد غيبة المهدي (الانتظار والاجتهاد).

Abstract

In this paper readig to the Anthropology of Shiite as a culture with its elements: loyalty and tragedy which centered around the hero \ Imam. And as a culture has a historic root return to ancient civilization arose in Sumer helped unconsciously in typing of cultural components of Shiite as sectarianism and rite. Thus we read Shiite on four stages:

1 - born in al-Madena in the age of the Prophet and the growth in the age of Ali.

2 - Crystallization after the death of Hussein (the stage of revolutionary protest).

3 - maturity in the age of Al-Sadiq (cultural and jurisprudential protest).

4 - extension after the absence of the Mahdi (waiting and diligence).

المقدمة

يشكل الشيعة اليوم ما يقرب من ثلث المسلمين في العالم الاسلامي يتوزعون في مختلف بقاع الارض ويؤمنون بعقيدة مخالفة (ان لم تكن مناوئة) لثلثي المسلمين الآخرين في الامامة. بمعنى ان الخلاف الذي شطر ولايزال المسلمين منذ وفاة النبي يتركز حول السلطة سرعان ما تحول الى عقيدة تربط الامام او الخليفة بالنص قرآنا وسنة ، أي بالله والنبي.

ظلت هذه العقيدة بسبب التزام الطرف الاخر بمقاليد السلطة لعهود طويلة من الزمن تمتد الى ١٤٠٠ سنة سوى بعض الجغرافيات التي تمتعت بالسلطة التي لم تتحول هي الاخرى الى حكم شيعي زماني (الامامة) وبقيت في حالة حكومة زمنية اكلتها الدورة الخلدونية في التغالب والعصبية. ولم يعهد الشيعة في هذا العصر من قرار لعقيدتهم في الحكم الا في عهد الخميني وثورته الاسلامية عام ١٩٧٩ والتي لازالت في حالة قلقة وتوتر سياسي مشدود مثل أي ثورة تنقلب على الواقع .

في العراق شهد الشيعة بزوغ هويتهم والاعلان عنها بدون تخوف بعد سقوط بغداد ربيع ٢٠٠٣ مخلفين ورائهم اربعين عاما من القمع الدموي الذي باشره صدام بتاييد دولي واقليمي . ولم يتمكن الشيعة من اداء طقوسهم البكائية بحرية التي تعد السهم الاضخم في تمييزهم الطائفي ، بل امكنهم من الوصول الى سدة السلطة وادراة البلاد لاول مرة منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة في عشرينات القرن الماضي من خلال صناديق الاقتراع.

بروز دور الشيعة بهذا الشكل الصادم يتيح لنا دراسة هذه الظاهرة من وجهة نظر انثربولوجية تتجه نحو فهم التشيع كثقافة راكزة في المجتمع العراقي.

البحث هنا يتركز حول المكونات الاولى التي تمنح التشيع سمة الظهور والمكانة في تاريخ الاسلام اولا والعراق بشكل اخص ثانيا.

(١)

بعد ان استقر الأمر بين المسلمين على تخليف علي دون غيره لتولي شؤون الدولة الإسلامية بعد الفتنة التي أودت بعثمان، شاء بعض الصحابة ان " يخرجوا " على الزعيم الجديد معلنين سخطهم على خلافته لأسباب تركزت في محورين:

الأول: هو عدل علي الذي أطاح بآمال بعض الصحابة الذين كانت تمنيهم أنفسهم بولاية الأمصار والاستئثار بالفيء والتوزيع غير المتساوي للثروة كما كان الأمر في أيام عثمان. شكل العدل صدمة لأولئك " البعض " من الصحابة الذين اعتادوا على نمط من الحياة الترفي كان مستنداً إلى اللامساواة في توزيع المال من بيت المال، رغم ان نمطهم في الحياة زمن عثمان كان مغايراً زمن النبي، ففي زمن النبوة كانت المساواة بين الجميع نمطاً سائداً خصوصاً إذا عرفنا ان الصحابة كان ديدنهم الأصيل هو الزهد من جهة والحماسة الدينية المتوجهة نحو الغيب/ الآخرة في نزوع نحو توسيع رقعة الإسلام بعيداً عن الأهواء بتولي المناصب أو التفكير بحصة زائدة من الغنائم من جهة ثانية، لكن الذي حصل هو طغيان الوحش الغرائزي أيام الخلافة بعد سلسلة من الفتوحات والغزوات التي أثرت الفاتحين الجدد وجعلت من الممكن التفكير بالشأن الدنيوي وتعمير الجسد ما أصاب النسيج الروحي القديم بالخدر وأحياناً بالشلل عن إدراك الأصل القرآني في العدل والمساواة، وهذا ما أثار المسلمين في الأمصار المتمردة في الكوفة والبصرة ومصر بسبب تنامي الوعي الطبقي " إذا أجزنا الاستعمال الماركسي " وحالة التفاوت الغريب بين الولاة وحاشياتهم وبين القاعدة العريضة من المسلمين والأقليات الأخرى في تلك الأمصار. لذا شكل العدل " ضيقاً " بتعبير علي نفسه على هؤلاء المتحولين في طبيعتهم الدينية الإسلامية من الزهد إلى الترف. فصدمة العدل أدت بهم إلى عدم التفكير ملياً بالعودة إلى زمن النبوة، بل في التفكير مباشرة في مباغتة علي بصدمة مقابلة هي اعلان التمرد ثم الحرب في البصرة.

الأمر الثاني: هو سيف علي الذي يتضح بشكل سافر في موقف الأمويين. فعلى الرغم من دخولهم الإسلام – الطلقاء منهم بخاصة- إلا ان الحقد القديم على ما فعله علي بتشتيت الآصرة القبلية وتفتيت زعامتها بانتصاره في الحروب التي خاضها النبي ضدهم، لا يزال غضاً طرياً لم يستطع الإسلام ان يمحوه. وقد استمر هذا الحقد ليشمل ذرية علي فيما بعد قتلاً وتشريداً وسبياً.

هذين الأمرين أديا بقريش ان تحزم أمتعتها لترحل إلى البصرة في محاولة " أثبتت نجاحاً مؤقتاً " لإنشاء تكتل راديكالي معارض للخليفة الجديد. وقد ضمنت قريش البصرة دون التفكير بمكة أو المدينة أو حتى مصر والكوفة لأسباب:

١- ضمان البصرة يعني ضمان الكوفة والعراق برمته. لأن البصرة هي الخاصرة التجارية للعراق، والاستيلاء عليها يمهد السبيل للاستيلاء على الكوفة " جمجمة العرب " ثم الاستيلاء على بقية الأمصار.

٢- البصرة مضمونة بسبب ولائها القديم للخليفة المقتول ولوجود علاقات سرية بين واليها وبين معاوية.

٣- لا يمكن التفكير بالمدينة بسبب وجود علي، كما لا يمكن التفكير بمكة لقربها من المدينة ولعدم وجود العدد الكافي من الجند. اما مصر فكانت أصلاً مع علي، والكوفة تحتاج إلى وقت لترويض أهلها على معارضة الخليفة.

تقول رواية ابن الأثير بان علياً لما سمع بوفود قريش إلى البصرة سرّه ذلك وقرر الذهاب إلى الكوفة لان فيها رجال العرب وبيوتاتهم، لكن ابن عباس ساءه اختيار الكوفة لمعرفته بشغب وتمرد أهلها على الأمراء. لم يلتفت علي إلى تحذيرات ابن عمه وصمم على الكوفة وانتدب أهل المدينة للمسير معه لكنهم تثاقلوا [٢].

والسؤال الإشكالي الذي يُطرح هنا هو: لماذا فرح علي وصمم على الكوفة، هل فعلاً لأن فيها بيوتات العرب. ولماذا لم يأخذ بنصيحة ابن عباس؟

عندما نقرأ سيرة الرجلين يتبين لنا شيئين: الأول هو رجحان كفة علي ليس من الناحية الدينية وحسب وانما من ناحية قرائته للتاريخ والذي يدفعنا إلى القول (وهذا ثانياً) ان ابن عباس قرأ التاريخ بينما قرأ علي التاريخية والميتاتاتريخ " ما قبل التاريخ وما بعده "[٣].

ولكي نفهم هذه القراءة التاريخية سأستعين بتأويل التاريخ في محاولة لـ " فهم " اجتماعي معاصر. وتاويل التاريخ يراد به قراءة الوجه الباطني للتاريخ برده الى النمط الاسطوري في اللاوعي مع الاحتفاظ بالقراءة الواعية للحدث .

(٢)

فبعد فرحه برحيل القوم إلى البصرة قرر علي من جانبه أن يسير مع جيشه غير المتكامل إلى الكوفة. هناك سيضمن وجود " شيعة " يستعين بهم في حربه ضد المتمردين. يعرف تماماً أن أهل البصرة سينضوون إلى جانب المتمردين ويكونوا ضمن " جند المرأة " وربما لن يستطيع جيشه المتشكل حديثاً من مواجهتهم سيما وان قسماً من أهل المدينة رفضوا الخروج معه، وقسماً

آخر فضل الحياد السياسي. في منتصف الطريق يفاجأ بوصول مدد أهل الكوفة الذين أثر فيهم كلام أبنه الحسن وعمار والأشتر بعد فترة من التردد والحيرة ومحاولات من الأشعري والي الكوفة لتثبيط هممهم. اقتنع الكوفيون اخيراً وذهبوا مع خليفتهم إلى البصرة وخاضوا حرباً سميت بحرب الجمل خرجوا منها منتصرين. لكن الأمور لم تستقر تماماً وخاضوا مع علي حربين آخرين في صفين ضد معاوية وأهل الشام، وفي النهروان ضد الخوارج الذين كانوا ضمن الشيعة إلا إنهم تأولوا المفاهيم القرآنية وخرجوا على أمامهم. في المعارك الثلاث وفي شؤون حياتية أخرى كان أهل الكوفة وهي سرّة العراق متعبين بشكل لا حدود له لعلي بن أبي طالب. وظهر لاحقاً إلى جانب أحاديث الثناء على الكوفة ،أحاديث أخرى في ذمها وذم أهلها. لقد وصل الأمر بطبيعتهم المتقلبة وطينتهم المتمردة إلى الحد الذي تمنى فيه علي مفارقتهم بالموت على قول وعلى استبدالهم بعشر رجال مخلصين من رجال معاوية على قول آخر. فكيف نوفق بين فرحه بالكوفة ومدحه لها في عدد من أقواله وبين ذمه ورغبته في مفارقتهم في أقوال أخرى؟

يظهر من السياق التاريخي للأحداث ان علياً أخفى سراً عن الآخرين ستكشف عنه ابنته زينب لاحقاً في اليوم الحادي عشر من محرم وهو اليوم التالي لواقعة الطف وذلك عندما رأت ابن أخيها الملقب بالسجاد يجود بنفسه متألماً لمقتل أبيه وأخوته فأخبرته بان ذلك عهد معهود من النبي وان أقواماً ستأتي لتنصب في الطف علماً للحسين " لا يدرس أثره ولا يمحى رسمه على كرور الليالي والأيام وليجهدن أئمة الكفر وأشياع الظلال في محوه فلا يزداد أثره إلا علواً "[٤].

إذا ما فهمنا النص على سطحيته فان " العَلَم " يشير من جهة قريبة إلى الضريح المقدس في كربلاء التي ترفع على قبته علماً أحمر بلون الدم الحسيني .وهذا الضريح تعرض إلى محاولات عديدة لـ " محوه " فلم يزدد إلا علواً كما قرأت زينب.

لكن من جهة تأويلية سنقرأ العَلَم بوصفه رمزاً لا إشارة وهو انه تأويل لتمدد البيت العلوي/ الهاشمي كسطوة روحية في نفوس الأجيال الجديدة التي ستستفيد من الخطيئة الكوفية بحق أهل البيت. وهذا التمدد يعني بكلمة أخرى تبلور التشيع في العراق بعد ان لم يجد الأرض الخصبة في المدينة. تبلور التشيع هو ما شهده تاريخ الكوفة من ثورات متتالية جاءت كرد فعل لمقتل الحسين. يمكن اختزال الأمر عن توسع التشيع في العراق بثلاثة محاور:

١-النزعة الاجتماعية الثورية والتي جعلت من الشيعة والعلويين في الجناح اليساري المناوئ للسلطة.

٢-النزعة الاجتماعية الثقافية التي تطالب بحق أهل البيت في الخلافة / الأمامة من خلال علم الكلام.

٣-النزعة الاجتماعية الفقهية التي رسخت " الحق " من علم الكلام إلى المستوى الفقهي السلوكي في العبادات والمعاملات، فلا يقبل الشيعي أن يتعبد بغير مدرسة الصادق التي نضجت في الكوفة. وبذا نقرأ التشيع على أربعة مراحل هي:

١-الولادة في المدينة في عصر النبي والنمو في عصر علي.

٢-التبلور بعد مقتل الحسين (مرحلة الاحتجاج الثوري).

٣-النضج في عهد الصادق (الاحتجاج الثقافي والفقهي).

٤-الامتداد بعد غيبة المهدي (الانتظار والاجتهاد).

سيكون العَلَم رمزاً للتشيع. ويصبح التشيع ظاهرة عراقية .العَلَم كرمز هو هو عينه ما ترمي إليه دراستنا من رسوخية التشيع كثقافة في بلاد الرافدين. الأمر مفهوم لدى زينب وبقية البيت العلوي بأن هناك مخططاً ترسمه السماء لتحويل الولاء من جهة الحجاز حيث البداوة إلى جهة العراق حيث الحضارة. وهذه الحضارة بنيت في هذا البلد بطريقة دموية كرست " المأساة " كتقليد شخصي واجتماعي على مر العصور. وفضلاً عن مآسي الحروب والصراعات، فان المأساة الراسخة بشكل اسطوري ثقافي مؤدلج[٥] هي الأخرى عملت على تشكيل الشخصية العراقية التي ستستوعب التشيع القائم أصلاً على فلسفة المأساة.

لنعد إلى فرحة علي بقراره الرحيل إلى الكوفة التي تضم بيوتات العرب ورجالاتهم حسب رواية ابن الأثير. فان قسماً من هؤلاء الرجال سيتمردون على حكمه لاحقاً لوجود إطماع شخصية عند البعض واجتهادات متسرعة في تأويل القرآن لدى البعض الآخر. وبذا يضع ابن عباس واقعيته عندما قرأ طبيعة أهل الكوفة من خلال التاريخ. فقد ساءه اختيار علي للكوفة لان فيها " من أعلام العرب، ولا يحملهم عدة القوم. ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمرٍ لا يناله، فإذا كان كذلك شغب على الذي قد نال ما يريد حتى تكسر حدته " [٦].

طينتهم متمردة أو مشاغبة بتعبير ابن عباس. وهذا الرجل حدس الأمر مسبقاً ووضعه صراحة بين يدي علي الذي أبدى شعوراً معاكساً لشعور ابن عمه. فهل كان علي على علم بطبيعة أهل الكوفة المشاغبة أم لا؟

في الحقيقة نعم كان يعرف جيداً مثل هذا الأمر، بل أنه أعرف الناس بأهل الكوفة لوجود أحاديث عديدة واردة عن النبي تشير بقوة إلى مقتل علي وذريته في ذلك المكان وخاصة الأحاديث الكثيرة الواردة بحق الحسين. فسيناريوهات القتل المأساوية قالها النبي ونقلها لأهل بيته كما يقول الفكر الشيعي. الغرض من ذلك ان يكونوا مستعدين "للمأساة". فالرسالة كانت نقية، لكن مجتمع الرسالة لم يكن كذلك وسيشهر السيف على ذرية النبي رغم ان "الأجر" الوحيد الذي طلبه النبي منهم هو "المودة في القربى" .إذن فالرجلان متفقان على ان الكوفة تضم بيوتات واعلام العرب. ومتفقان كذلك على ان أهل الكوفة مشاغبين من خلال قراءة التاريخ[٧]. لكن علي

وبالرغم من معرفته تلك كان قد صمم الرحيل إلى تلك المدينة التي ستشهد مصرعه ومصارع ذريته { بنفس الطريقة التي صمم فيها الحسين المسير الى الكوفة مع عائلته على الرغم من تحذيرات ابن عباس أيضاً. والحسين نفسه كان قد قرأ مصرعه وكأنه يشاهده تلفزيونياً: " كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلواة بين النواويس وكربلا.." وعندما سأله أخوه ابن الحنفية عن سبب أخذ النساء معه، أجاب: ان الله شاء، أن يراهنّ سبايا } السبب كما أراه انه قرأ " تاريخية " الكوفة بصورة تتميز وتتفوق على التاريخ. قراءة التاريخية تقول بان للكوفة امتداداً غائراً في القوم مع الحضارة الرافدينية. وهذا الامتداد الحضاري سيستفاد منه اهل البيت وعلي في مقدمتهم لترسيخ ثقافة التشيع في العراق.

(٣)

قبل ان نتطرق إلى هذه الصلة / المتصل لابد ان ننبه ان دراستنا لظاهرة التشيع ليس كعقيدة دينية وانما كثقافة اجتماعية. والثقافة تنقسم إلى مستويين: التحتاني ويعني بالأصول والمكونات ويستعين بعلم التاريخ والآثار. والسطحي الفوقاني الذي يهتم بمكونات الثقافة في صيغتها المعاصرة – زمن الدراسة - . يمكن ان نفهم المستوى التحتاني من تعريف لينتون للثقافة كونها ميراث اجتماعي Social heredity [٨].

فالتشيع ليس بالضرورة ثقافة التشيع او ان الأول ضمن الثاني .وكي نكون أكثر دقة فان التشيع كثقافة تحتانية هو غير التشيع كثقافة فوقانية. الأولى تغوص بعمق في الحضارة السومرية – البابلية، والثانية جاءت مع الإسلام أو هي الإسلام مجسداً كما يقول الشيعة في إثبات أفضيلتهم على باقي الفرق. والدراسة الحالية تتناول الصلة بين الثقافتين هذا من جهة، ومن جهة أخرى نشير إلى ان التشيع كعقيدة أو معتقد ديني يقوم أساساً على ولاء جماعة وهم الشيعة لشخصية دينية (علي) لا علاقة لها بالديانة الرافدينية القديمة. لكن التشيع كثقافة هو ما نحاول تأصيله في تلك الديانة. يحصل الأمر نفسه مع الإسلام كدين توحيدي يتقاطع مع الديانات الوثنية حتى التوحيدية منها. لكن ثقافة التوحيد الإسلامية لها جذور مع الأديان الكتابية وبعض الديانات الوثنية.

يتحدث الكثير عن وجود ثقافة التوحيد في عصور غابرة تشمل حضارة وادي الرافدين عندما تم توحيد الآلهة في الإله مردوخ البابلي، وحضارة وادي النيل عندما توحدت الآلهة في آمون. وفي الجزيرة كان العرب قد وحدّوا الآلهة في قوة واحدة هي الإله هُبل. فهناك نزوع إنساني لتوحيد الآلهة المتعددة في إله واحد. لذا فان ثقافة التوحيد هيأت العقل لتقبل دين التوحيد بالرغم من صعوبات الخروج من تلك الثقافة إلى الدين الجديد. ومن المعروف وجود جماعة من

الأحناف قبل البعثة النبوية كانت على ملة إبراهيم وعلى رأسهم ورقة بن نوفل[٩]. فالاستنتاج الاولي هو **ان التشيع متصل بثقافة التشيع التي تتصل هي الأخرى بالثقافة السومرية القديمة.** هذا المتصل الثقافي cultural continuum يُنقل تارة بشكل ميراث مجسد كما في بعض المفردات اللغوية (أفرد لها عالم الآثار طه باقر كتاباً رائعاً هو: من تراثنا اللغوي القديم)، وتارة بشكل موتيفات أو نماذج أولية arch types حسب تعبير كارل يونغ وهذه تنتقل إلى اللاوعي الجماعي لتؤدي دورها المعاصر في آصرة مشتركة مع الثقافة القديمة وخاصة في جانبها الاسطوري.

بناء على وجود متصل سومري بثقافة التشيع نستطيع فهم تاريخية الكوفة فهماً تأويلياً من خلال قراءة علي لها. فمن الغريب جداً ان يفرح الرجل بمدينة يعرف تماماً انها ستحمل السيف ضده وضد بنيه من بعده، لكن هذه الغرابة تخف وطأتها عندما نفهم "العَلَم" الذي اشارت إليه زينب بنت علي فهماً تأويلياً وتحويله من الإشارة إلى الرمز. فهناك بالفعل أقوام ستحمل السيف ضد أهل البيت في الكوفة، لكن هناك أقوام أخرى **ستحمل** لواء أهل البيت في الكوفة نفسها. هذه الأقوام الموالية تعمل في الكوفة كمصدر للتشيع وسوف **تتحمل** كافة الضربات من الفئة الأولى ومن الفضاء السياسي برمته، لكنها لا تستطيع العمل في المدينة أو مكة لأسباب:

١- ان للكوفة عمقاً حضارياً له جذوره الرافدينية، بينما بيئة الحجاز النجدية ذات أصول بدوية. والثقافة العراقية ستكون ممهدة لاستقبال وتقبل التشيع كما سنرى.

٢- ينشط التشيع مع نشاط الاستبداد. والمجتمع العراقي شهد منذ القدم تقاليد الاستبداد اكثر من غيره.

تعبير" المحو" الذي أوردته زينب حول العَلَم سيتكرر ثانية في مجلس يزيد بن معاوية مرتبطاً هذه المرة بالذكر " ذكر أهل البيت ". والتعبيران يصبان في مفهوم واحد هو توسع التشيع بعد مقتل الحسين. تقول زينب ليزيد: " والله لن تمحو ذكرنا ولن تميت وحينا ". إذا ما جاز لنا ان ننفي عن زينب معرفتها بالغيب، فلا يجوز ان ننفي عنها قرائتها للتاريخ. وقد ورثت هذه القراءة التاريخية لسير الأحداث مستقبلاً من أسرتها بتصميمها وبإرادة قوية على القول ليزيد " لن تمحو ذكرنا " أمام قوله " لعبت هاشم بالمُلك ". سيقف "العَلَم" و"الذكر" العلويين أمام محاولات الطمس والمحو. فيعمل التشيع في هذا الفضاء السياسي الذي يجمع الاستبداد من جهة رافعاً راية الظلم، أمام التشيع الذي يرفع راية المظلومية من جهة ثانية. فمقابل السيف الكوفي الذي سيقتل ذرية النبي، هناك ولاء سيتوسع بعد القتل من خلال الشيعة لأن القتل لم يكن موتاً. قتل الأئمة هو حياة واستمرار للشيعة والتشيع. لذا فان تاريخ أئمة أهل البيت هو تاريخ مدمي. الكل أصابهم القتل، لا يوجد أمام مات حتف أنفه. قتل الإمام في التاريخ والفكر الشيعيين يرمز إلى وجود الظلم. والتشيع يتوسع متى ما وجد الظلم من قبل السلطة الحاكمة. بكلمة أخرى ان الظلم

والاستبداد الذي نتج عنه قتل الأئمة سيؤدي إلى المأساة التي تجري عليها طقوس الاستذكار سنوياً. من هنا يتعزز الولاء في الكوفة ابتداءاً لأن " الله عرض ولايتنا على أهل الأمصار فلم يقبلها إلا أهل الكوفة " كما يقول الصادق [١٠]. **فالعَلَم الزينبي هو الولاء الصادقي.** لكن هل الولاء هو التشيع ؟ في هذه النقطة يصادفنا الحسن بن علي بتعريف الشيعي لحل هذه الإشكالية من خلال حوارية جرت بينه وبين رجل قال له: اني من شيعتكم. رد الحسن: ان كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت، وان كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها. لا تقل أنا من شيعتكم، ولكن قل: أنا من مواليكم ومحبيكم ومعادي أعدائكم. وأنت في خير والى خير [١١].

هكذا إذن، فمفهوم " الشيعي" عند الإمام الحسن هو غيره عند الشيعة أنفسهم. بدقة أكثر وحسب الحوارية السابقة، ان هناك شيعي وهناك موالي. الأول في المرتبة الشريفة والثاني في مرتبة الخير وهي أقل من الأولى. بهذا المعنى سينحصر مفهوم " الشيعة " في فئة نخبوية قليلة اعتادت ان تنهج منهج الإمام المعصوم في الحلال والحرام والمستحب والمكروه والمباح { لذا يطلق على الشيعي، إمامي }.

ومأزق الشيعة على مرّ التاريخ هو في الولاء لا في التشيع. وهو مأزق ينصرف إلى الناحية السياسية لان الديني مضمون. فالتشيع ديني صرف لكنه يستوعب السياسي ويواجهه (أبو ذر، حجر بن عدي، رشيد الهجري، ميثم التمار ..). بينما الولاء ديني يخاف السياسي. لنفهم مثلاً كيف يختلف تشيع هاني بن عروة والسيدة طوعة اللذان قاما بإيواء مسلم بن عقيل وبين ولاء باقي أهل الكوفة له في بداية قدومه لهم حيث أعلن الجميع استعدادهم للوقوف معه ومساندة أخيه الحسين في قضيته حتى أخذ البيعة من عشرين ألف أو يزيدون، لكنهم خذلوه باجمعهم بعد تهديدات الحاكم ابن زياد لهم[١٢]. فالشيعي يثبت اما الموالي فيمكن ان يتغير (لطبيعة الولاء المتغيرة). أثبت هاني وطوعة شيعيتهم مقابل ولاء أهل الكوفة القلبي. هذا يدفعنا إلى فهم كلمة الفرزدق عندما سأله الحسين عن حالة أهل الكوفة، فقال: قلوبهم معك وسيوفهم عليك. فهي تشير إلى ولائية الكوفيين وليس تشيعهم. في هذه الحالة يخرج الشيعة من الوهم التاريخي الذي أُلصق بهم باعتبارهم قتلة الحسين. فالذين غدروا بالحسين لم يكونوا شيعة بل موالين / ولائيين، وهؤلاء كما قلنا لا يثيبون على حال وبإمكانهم تغيير ولائهم تحت ظروف معينة. وقد وصفهم الحسين يوم المعركة بانهم " شيعة آل أبي سفيان " ولم يخاطبهم بوصفهم شيعة علي. فعندما تغير الولاء تغير مفهوم الشيعي إلى العدو ولكن بقي مفهوم التشيع حائزاً على مرتبة الشرف التي منحها الحسن كما أسلفنا[١٣].

(٤)

لنعد إلى المسألة الأساس في هذه الدراسة والمتعلقة بتاريخية الكوفة والصلة مع سومر ثقافياً. يذكر الحموي في معجمه بأن علياً قال: من كان سائلاً عن نسبنا فإننا نبط من كوثى. يقول أبو منصور بأن علياً قصد بقوله كوثى العراق وليس كوثى مكة، لأنه لو أراد كوثى مكة لما قال " نبط " وكوثى العراق هي سرّة السواد. وأراد عليه السلام ان أبانا إبراهيم كان من نبط كوثى وان نسبنا ينتهي إليه [١٤]. ولا يعرف تحديداً إلى من تعود كلمة " نسبنا " هل هي لقريش خاصة أم للعرب. والمرجح انها للثانية لسببين، الأول: ان النسب يعود لإبراهيم والد إسماعيل وهو أبو العرب كما هو معروف فتكون كوثى البابلية مصدر النسب العربي. الثاني هو قول أبو منصور " ان نسبنا ينتهي إليه " ولم يحدد قبيلة بعينها. لكن ابن عباس يقوم بهذه المهمة فيقول: نحن معاشر قريش حي من النبط من أهل كوثى [١٥] لكن بنفس الوقت قام بتبعيض النسب " حي من النبط " فيمكن بذلك ان تكون نسبة العرب إلى كوثى أكثر من نسبة قريش لوحدها.

وسواء كان الأمر هذا أو ذاك فان الاقرار بالانتساب إلى بابل يمنحنا فهماً تأويلياً لفرحة علي بالكوفة رغم أستياء ابن عباس. فكوثى هذه تقع ضمن الدولة البابلية القديمة وقريبة من الكوفة وكانت من المدن الدينية المقدسة، ومعبودها الرئيسي هو الإله " نرجال " إله العالم السفلي. وذكرت في التوراة بصفتها إحدى مدن بابل الرئيسة [١٦]. وهي الموطن الذي ولد فيه إبراهيم الخليل. ستكون كوثى ومن ثم الكوفة بشكل منطقي متسلسل وريثة للحضارة السومرية.

يؤكد جان بوتيرو في العديد من كتاباته على ان الحضارة الغربية مدينة لسومر وبابل ونينوى في تكونها. وهذه الحضارات القديمة غذت منابع الفكر الغربي في شطريه : العهد القديم والفلسفة الاغريقية. ويميل إلى الاعتراف دون رومانسية أو تحزب، بل ببداهة المؤرخ، بان سومر وبابل وطن الآباء الأوائل للغرب [١٧].يشاطره في ذلك عدد آخر من المهتمين بدراسات الشرق القديم[١٨]. فإذا كانت سومر " فبابل وآشور" قد منحت العالم القديم نموذجها الحضاري والثقافي، فمن باب أولى واقرب أنها قد منحت ذلك إلى الأقاليم المجاورة والمدن المتساكنة معها في وطن واحد. لننظر ملياً في كلمة لهشام جعيط يقول فيها: " أودع ميراث بابل الثقافي في بلاد بابل ذاتها، وانتشر واستبطن في بلاد الرافدين كافة، وتقدم حتى شمال الشام " كما يشير إلى اندماج الارث البابلي بالتقاليد الساسانية، في طيسفون بالذات، واتجاه ذلك الارث للظهور بوضوح اكبر في الرقعة الجغرافية التابعة لبابل القديمة، بالكوفة والحيرة [١٩]، فضلاً عن المتصل الجغرافي والايكولوجي، نجد متصلاً ثقافياً يمتد من سومر إلى الكوفة، عبر البلاد البابلية القديمة في كوثى والحيرة. هذا إذا عرفنا بأن بابل القديمة قد استوعبت الحضارات السابقة لها في الجزء الجنوبي من العراق وهضمت ثقافاتها لتصبها لاحقاً في الحيرة. **فالحيرة هي حلقة الوصل والنقل الثقافي**

بين سومر والكوفة. يقول البراقي بأن " الحيرة انسكبت في الكوفة والكوفة انسكبت في النجف "[٢٠].

ان الكوفة بحسب المقدسي كانت أستاناً (= منطقة كبيرة) تضم مدناً هي: حمام ابن عمر، الجامعين (= الحلة)، سورا، النيل، القادسية، عين التمر. ونظراً لتجاور الحيرة مع الكوفة، كان يطلق عليهما تسمية مزدوجة: الحيرتان [٢١]. بمعنى وجود " محيط " للكوفة لا يشمل المدينة التي أسسها سعد سنة ١٨هـ. وهذا يفسر بطريق آخر كيف ان " البركة فيها على أثني عشر ميلاً " كما يقول الصادق [٢٢].

لنبحث في مسار آخر هو: **انتقال الثقافة العراقية مع النهر**. من المعروف ان المستوطنات الأولى انشئت بمحاذاة الأنهار وحولها لتوفر العنصر الرئيسي – الماء- في أعمال الزراعة التي طورت مفهوم السلطة فيما بعد لتؤسس المدن على أثرها. لكن تحول مجرى النهر إلى مجرى جديد يؤدي إلى هجرة السكان مع الثقافة التي يحملونها إلى مدينة أخرى. ما يعني التلاقح والتداخل ثم الانسكاب بين الثقافات في العراق القديم. وهذا ما حصل عندما " تحول نهر الفرات من مجراه الشرقي القديم باتجاه كوثى إلى جهة فرع بابل، فكان العامل المباشر في انتقال الحضارة والعمران من المدن الجنوبية الواقعة على نهر كوثى إلى جهة المجرى الجديد " [٢٣]، وتحول الفرات من مدينة كوثى إلى بابل هو تحول نحو الكوفة التي تعد صرة بابل كما يذكر الصادق. لقد انسكبت في الكوفة الثقافة الروحية القديمة القائمة على المأساة كما سنبحث، هذا أولاً، ولان النبطيين الذين أشارت إليهم كلمة علي قد نزحوا إليها وكانوا يعدون سكان البطائح بين العراقيين ثانياً.

من الجهة الأولى استفادت الكوفة من تحول سكان اريدو القديمة إلى بابل بسبب تحول مجرى الفرات إليها بعد جفاف نهر كوثى الذي تقع عليه مدينة أريدو وهي من أقدم وأقدس المدن السومرية القديمة. يقول ويلكوكس " كان على نفر والوركاء ولارسا ان تروى من فرع آخر يستمد مياهه من مجرى الفرات البابلي الجديد. كما ان مدينتا شورباك واريدو أصبحتا مغمورتين بالمياه بالنظر إلى انخفاض أراضيهما. وهكذا حول الفرات مجراه مرة أخرى واخذ ينساب في أهوار واسعة كالتي كان فيها من قبل، ووضعت أسس لمدينة جديدة ولمعبر جديد وراء الضفاف المحكمة السدود الواقعة في منطقة الاهوار المحصنة. وقد نقل إلى معبد مردوخ الواقع في بابل، مركز منطقة الرخاء الجديدة، اسم " اياساكل " المعبد المقدس في مهد الشعب السومري ثم امتلك الأكاديون أراضي سومر"[٢٤] والاياساكل/ الايساكيل هو المعبد الرئيسي الذي كانت تجري عليه طقوس عيد الاكيتو. سينتقل التراث الروحي والثقافي من مدن الجنوب عبر النهر الجديد إلى بابل وبالنتيجة سيصب في الحيرة والكوفة. ومن ثم يعود هذا التراث بعد نضج التشيع إلى مدن الجنوب بعد فترة من الإعداد الروحي استمرت طويلاً. فالكوفة لها **تاريخية** تتوغل في عمق

الحضارة العراقية القديمة ليس من الناحية الاركيولوجية وحسب كما اسلفنا وانما من الناحية الميتافيزيقية والميتاتاريخية. تؤكد الروايات الشيعية على قدم المدينة بالتزامن مع الظهور الأول للأديان والأنبياء.يقول علي حول مسجد الكوفة: في زاويته فار التنور وعند الاسطوانة الخامسة صلى إبراهيم، وقد صلى فيه ألف نبي وألف وصي، وفيه عصى موسى والشجرة اليقطين.. وفيه مصلى نوح كما ان النبي محمد صلى فيه أثناء معراجه إلى السماء. وأشار إليه جبرائيل فقال: يا محمد هذا مسجد كوفان [٢٥] . ينسجم ذلك مع وجود النبط الذين أكد عليهم علي وابن عباس. فالنبط هم " آراميو بلاد بابل عند العرب " الذين ينطبق عليهم اسم شورستان وهو اسم يطلق على العراق [٢٦]. وهم سكان البطائح بين العراقيين ونزلوا الكوفة حيث نزل السريان من أطراف النجف والحيرة[٢٧].

فبيوتات العرب ورجالاتهم التي ذكرتها رواية ابن الأثير بلسان علي تشير بوجه إلى المستوطنين الجدد بعد مرحلة التأسيس على يد سعد بن أبي وقاص، لكنها تشير من وجه آخر إلى بيوتات قديمة تعود إلى النبط الذين أسسوا لنسب قريش والعرب بواسطة إبراهيم. وهؤلاء قد ورثوا ما انتقل اليهم من الثقافة السومرية عبر الأجيال وسكبوها في كوثى ثم الحيرة فالكوفة. إلا يحق لعلي ان يغتبط فرحاً بالرحيل إلى الكوفة. إنها التربة الخصبة التي سينمو فيها التشيع، إنها " تربة تحبنا ونحبها " كما يتحدث عنها الصادق وهي " مدينتنا ومحلتنا ومقر شيعتنا "[٢٨]. لكن فرحة علي لن تدوم طويلاً لأنها ممزوجة بألم ممض. سينتصر على أعداءه لكنه نصر على "الأخوة" الأعداء. ويتحول النصر إلى فرصة للحزن على "الصحابة" الذين قاتلوا معه قديماً، وبعد وفاة النبي سيقومون بمقاتلته وإنكار ولايته. ثم انه سيبكي طويلاً على المصير المفجع لولده الحسين. قرأ ببصيرته الثاقبة التاريخ القادم لأهل الكوفة مع ذريته وتحول فرحه ذاك إلى بكاء مرير. تقول الرواية ان علياً أرسل الحسين لمنازلة جيش معاوية مع عدد من الفرسان وعاد منتصراً. ولما شاهده علي بكى فسألوه عن السبب، فأجاب: ذكرت انه سيقتل عطشاناً بطف كربلاء[٢٩]. بعدها يتحول التشيع إلى ثقافة مستمدة من الروح الإسلامي وترتكز بكثافة عالية حول مفهوم الشهادة. اعتمد التشيع بعد مقتل الحسين على طقوس الاستذكار السنوية التي تجدد "المأساة" على الأب الشهيد، أبو الأحرار الذي ضحى لأجل أبنائه لتحريرهم من قيود العبودية. ثقافة المأساة الشيعية تتغذى من ثقافات المأساة السومرية بشكل نماذج أولية لا واعية وهو ما سنتناوله الآن.

(٥)

لو ركزنا النظر قليلاً في الشيعة كجماعة ناهضة ومتبلورة في الكوفة (وليس كجماعة وليدة في المدينة) فلابد ان نخرج بمعطيات ثقافية أولية قبل تشكل المعطيات العقدية الثانوية في الجماعة الناضجة. هذه المعطيات تقول بـ :

١- الولاء للبطل الكارزمي وهو علي الذي جمع بين الشجاعة والمعرفة (وتالياً في الخلاص).

٢- الشقاق في الرأي الذي رافق الشيعة كجماعة ناهضة والى الآن.

٣- التمرد أو الاحتجاج ضد الحاكم (بضمنه علي نفسه).

٤- المأساة وتدور حول قتل أو مقتل البطل / الأب والتي ستتطور إلى رفعه بشكل رمز متسامي تقام حوله الطقوس.

هذه المكونات الثقافية الأساسية للجماعة الشيعية الناهضة في الكوفة .بينما كجماعة وليدة في المدينة، كان الولاء فقط مكوناً لها. ستقوم نصوص لاحقة وردت بالخصوص عن طريق الباقر والصادق بتطويرها أولاً ثم إضافة عقائد جديدة لم يتم التصريح عنها في زمن التشيع السياسي، أي زمن الائمة الثلاث الأوائل: علي والحسن والحسين. اما السجاد فقد تم التضييق عليه بشدة حتى ان الوجه الأساسي لاحتجاجه ضد الأمويين كان عن طريق الدعاء ويشتهر عنه في ذلك الصحيفة السجادية. في زمن الصادقين كان هناك انفراج نسبي أمكن من خلاله الاحتجاج بطريق التشيع العقدي والطقوسي والثقافي بفرعيه الكلام والفقه. فقد أمكن لكلا الإمامين التعريف بنماذج عقائدية جديدة ونشرها بين الشيعة كالتقية والرجعة والبداء والمهدي. اما الطقوس فكان التشجيع عليها منذ زمن الباقر الذي يشتهر عند مفهوم " إحياء الأمر ". إذ كان يروج لإقامة العزاء على مأساة الحسين واقامة طقوس النواح وإلقاء القصائد بقوله : " أحيوا أمرنا... رحم الله من أحيا أمرنا ".

اما التشيع السياسي والمطالبة بالإمامة فقد تم التغاضي عنه طيلة هذه الفترة بسبب تضييق الخناق على الأئمة والشيعة (عدا ثورات قام بها الشيعة بقيادات علوية وغير علوية ولكن بدون إذن الأئمة) فكان الاحتجاج ثقافياً عن طريق علم الكلام الذي طوره الصادق واشتهر فيه تلميذه هشام بن الحكم، وعن طريق الفقه (عبادات ومعاملات) التي ميزت الشيعة في فترة ظهور واستحكام المذاهب الأربعة. ويجب ان نأخذ بالاعتبار زيادة إعداد الشيعة (بالرغم من أعمال الإبادة) طيلة هذه الفترة – فترة النضوج- على أيام الصادقين مقارنة بالعصر الأول. وهو أمر كان له أبعد الأثر في نشر التشيع، حتى يقال بان عدد من يروي عن الصادق في مسجد الكوفة كان أربعة آلاف محدث.

إذا ما فككنا المكونات الثقافية الأربعة السابقة نجد ان الولاء والمأساة هما دالّة التشيع " العقيدة " بينما الشقاق والتمرد هما دالّة الشيعة كجماعة " سلوك/ فعل اجتماعي ".

الفرق بين المفهومين هو ان التشيع كعقيدة خالصة انما يعود في تكوينه إلى النص. وهو نص معصوم حسب الفكر الشيعي. أما الشيعة فهي الجماعة التي تتبع النص. وهنا اما ان تكون جماعة شيعية تقية بإتباع الإمام المعصوم، أو انها متأولة، أو منحرفة عن التشيع مكتفية فقط بالانتساب الصوري باسم الموالاة والحب لآل البيت كما أوضحنا في حوارية الإمام الحسن.

برؤية رمزية **يدور التشيع حول الموالاة والمأساة وتتركزان حول البطل أي الإمام**. وكي تكون هناك موالاة يجب ان يكون هناك نص. الإمام عند الشيعة هو إمام بالنص أي انه منصب من قبل الله. لذا فان الموالاة ترتبط بالميتاتاريخ { حتى ان نصوصاً تتحدث عن الإمامة في الخلق الأول وقبل مبعث النبي } ، اما المأساة فترتبط بالتاريخ لأنها من صنع الحاكم المستبد وانحراف " الأمة " أو المجتمع الإسلامي. المأساة لا ترتبط بالنص إلا من ناحية التذكير أو التنبؤ بالمصير. فالإمام يجب ان يكون إماماً بالنص الإلهي من جهة، ويجب ان يقتل – تاريخياً - كي تكون المأساة. الميتاتاريخ تصنع الموالاة والتاريخ يصنع المأساة. بمعنى ان تنصيب الإمام من قبل السماء/ الله، وقتل الإمام من قبل الأرض/ البشر.

ان حتمية المأساة على الائمة - وهي حتمية تاريخية منصوصة - نجدها في حديث يقول " ما منا إلا مقتول أو مسموم ". ويا للغرابة، فكل إمام يتنبأ بمصيره الأخير وطريقة الموت ويرويها لحواريه فتاتي الرواية مطابقة للواقع. بذا يرسم التشيع مساره التاريخي في صراع الأرض والسماء، الظالم والمظلوم. وتكون " المظلومية " أحد المفاهيم الرئيسية التي تتعلق بالإمام المعصوم. وتزخر الأدعية والزيارات بالسلام على "المظلوم" الشهيد والغريب المغصوب حقه.. واللعن على الظالم. ولأن الشيعة هم اتباع الائمة المظلومين، فان المظلومية ستنتقل بسبب الموالاة. نجد الباقر يجمع بين المظلوميتين فيقول متألماً: "... ثم لم نزل – اي أهل البيت - نُستذل ونُستظام ونُقصى ونُمتهن، ونُحرم ونُقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا... وكان عُظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن. فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقُطعت الأيادي والأرجل على الظنة، وكان من يُذكر بحبنا والانقطاع إلينا سُجن او نُهب ماله أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة. حتى ان الرجل يقال له: زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال: شيعة علي[٣٠].

ويخلد الشيعة مظلومية أئمة أهل البيت (دون مظلوميتهم) من خلال الطقوس. وتتنوع الطقوس من اليومية إلى الاسبوعية فالدورية الكبرى. والأخيرة هي الأهم لأنها تميز الشيعة بوضوح تام بسبب الحشود الهائلة التي تلتحم عند الأضرحة المقدسة في كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء. وكما تخلد المأساة يجب تخليد الموالاة. فتقام الطقوس والشعائر يوم ولادة المهدي ويوم تنصيب الإمام علي في الغدير، وزواجه من السيدة فاطمة، ويوم المبعث.. من

خلال الطقس يتحرك المقدس ولن يظل محفوظاً في كتب السير والأحاديث. تحريك المقدس/ البطل هو استدعاء لاشعوري لتاريخية البطل في المكان.

(٦)

بما ان دراستنا حول ظاهرة التشيع " كثقافة اجتماعية " وليس عن الشيعة كجماعة، فاننا سنتلمس أصول هذه الظاهرة في مكونها الرئيسيين: الموالاة / تقديس البطل، والمأساة / قتل البطل. فتكون دراسة التشيع تصب في حقل الانثربولوجيا، ودراسة الشيعة في حقل السوسيولوجيا.

تقديس البطل وخاصة الحاكم ورفعه إلى مرتبة الالوهية تقليد عرفته الحضارة الرافدية منذ بزوغها في سومر. ورسخت الاسطورة صورة البطل الإنساني وتدعيم شخصيته بالمزايا الإلهية كما تروى أساطير كلكامش وانيمركار ولوكال بندا. تقديس البطل بهذا الشكل يعزز لدينا ثنائية القائد – المخلص. القائد على المستوى الأرضي ويرتبط "**بالزمن**" المغلق اما المخلص فينتظره الجميع ليأتي من السماء ويرتبط "**بالزمان**" المفتوح. هذه الثنائية تشي بوضوح إلى مجتمع مأزوم بحاجة إلى بطل يمتلك شيئين مهمين هما: القوة والمعرفة { في القرآن إشارة إلى ذلك في قصة طالوت الذي زاده الله " بسطة في العلم والجسم " } ما يؤهله وبجدارة على إيجاد الحلول السريعة والخاطفة للمشاكل والأزمات العويصة. وكلما تعقدت الأزمات في المجتمع كلما تهيأت الأجواء لظهور البطل. ينتظر الناس ظهور القائد – المخلص كي ينهي متاعبهم، وبعد ان يؤدي دوره يكافئونه برفعه ملكاً عليهم وتقديس شخصيته ورواية فضائله. وهم لا يصدقون موته، فيرفعونه إلى السماء حياً مع الآلهة أو الملائكة في سفر طويل ثم يعود كي يشاركهم المعاناة ، كيف يموت البطل وهو سلسل الآلهة ؟ لذا لابد له من عودة. وتتم إعادته عن طريق الطقوس التي تجدد مولده وموته ومبعثه، أو يتم ترحيله إلى العالم السفلي كي يكون شفيعاً للمذنبين . لكن يجب أن يبقى خالداً لانه مقدس وهو تكريم ديني – اجتماعي عرفته حضارات العالم القديم. وفي مقدمتها الحضارة الرافدينية.

البطل يصبح مقدساً لان في شخصيته وانجازته ما يخرق العادة والمألوف. ويصدق كثير من الناس بأن البطل ليس من جنسهم وانما ينتمي إلى جنس الآلهة. بنفس الوقت الذي يتم فيه التقديس فانهم يمنحونه ولاءاتهم ويملّكونه عليهم.

إذا ما استمر البطل في عطائه فلابد من الاستمرار معه بعد موته. قد يموت البطل جسداً، لكن روحه يجب ان تستمر عن طريق الطقوس وتجديد ذكراه كي تكون علامة للأجيال.

بهذه الطريقة لم يصدق كلكامش موت صديقه انكيدو وناح عليه كما تنوح الثكالى وطلب من أهالي اوروك ان يندبوه ليل نهار:

لتندبك المسالك التي سرت فيها في غابة الارز
وعسى ان لا يبطل النواح عليك مساء نهار
ولينديك شيوخ اوروك ذات الاسوار [٣١]

كلكامش نفسه لم يصدق شعبه بخبر موته واندهشوا لمصير البطل المسجى أمامهم ذاهلين من مصيرهم القادم بدونه. ما كان منهم إلا ان أقاموا نواحاً لهذه الفاجعة :

لم يكن الواقفون صامتين، ولا شاربوا الماء بصامتين
لقد نصبوا نواحاً [٣٢]

ولأن الأسطورة وعدته منذ البدء بالرفعة على الجنس البشري، فقد أصبح بعد موته خالداً وشفيعاً للموتى في العالم الأسفل وترفع إليه الابتهالات أسوة بالآلهة وتقدم له الهدايا من قبل الموتى. وكان يقوم بإرشاد الملوك الموتى إلى أماكن اقامتهم في العالم الأسفل[٣٣].

استغل الملوك النزوع الإنساني القديم لتاليه البطل لمصلحتهم الشخصية. بإمكان الملك ان يوجه ولاء الجماهير نحوه بطريقة إيديولوجية توهمهم بان اعمال الملك تحت رعاية الإله، ويضمن بذلك قداسته الموهومة في نفوس أشياعه. النص التالي يتحدث عن بطولة الإله نينورتا – سيد الأرض - الذي دمّر الأعداء في الجبل، لكنها بالحقيقة تأويل لبطولة الملك جوديا الذي قاد هذه الحرب ضد من يسميهم " الأعداء " :

أنت البطل الذي ألقى على أعدائه
شِباك المعركة
نينورتا، ضلك الرهيب ينتشر على البلاد
أنت الذي جعلت المنطقة المتمردة
تغرق في الظلام، وطوقت جيوشها [٣٤]

غير ان ثقافة الموالاة والمأساة تتجسد بشكلها السافر - مع كثافتها الرمزية - حول موت وبعث الإله تموز. وبالرغم من انها كانت طقوساً مؤدلجة لخدمة المعبد والقصر، إلا انها أصبحت اعتقاداً وثقافة استمرت حتى بعد ظهور الأديان الكتابية ومنها الإسلام. تذكر التوراة

بكاء النساء على تموز وتسميها " رجاسات " [٣٥]كما أكدها ابن النديم كإحدى شعائر مذهب الكلدانيين المعروفين بالصابئة في منطقة حران [٣٦].بناء على ذلك نستنتج بقاء تلك الطقوس في الثقافة العراقية بشكل نموذج أولي في اللاشعور الجمعي ينتظر مأساة جديدة كي يبكي عليها. وكانت هذه المأساة قد تجسدت في الحسين بعد ان كانت مجسدة في تموز. الفارق ان تموز كان أسطورة / وهماً اخترعه الكهنة في محاولة أثبتت نجاحاً مذهلاً للسيطرة على عقول السومريين ذوي الرؤوس السوداء. بينما كان الحسين تاريخياً صنعه بدمه ونجح بالانتصار على أعدائه من خلال المظلومية / المأساة. نجد غاندي يؤكد هذا المفهوم بمقولته الشهيرة : تعلمت من الحسين ان أكون مظلوماً فانتصر.

بالرغم من ان تموز ومأساته كانت وهماً مخترعاً، إلا انه كان وهماً ينسجم مع الذات العراقية الحزينة، وبعكس باقي الأوهام الإنسانية، كان تموز وهماً ذا أساس ثقافي. فالثقافة العراقية القديمة ذات أساس مأساوي يضرب بجذوره في ثالوث : الطبيعة – الدولة – الدين.

الطبيعة بفيضاناتها أو جدبها، والدولة باستبدادها، والدين باستغلاله ، اي ادلجته لصالح الدولة ومنافع الكهنة . ففي الوقت الذي تكون الطبيعة خصبة معطاء كما هو معروف عن العراق، فان من المعروف أيضاً ان هذه الطبيعة تصبح مدمرة بأعاصيرها واغراقها للحضارة كما حصل في نيبور. من هنا نرى أعظم وأبغض الآلهة في سومر هو انليل اله العواصف المدمرة. وجاء استبداد الدولة كنتيجة منطقية لاستبداد الطبيعة " المياه تحديداً " فكان التحكم بالمياه طريقاً للتحكم بالشعب، حيث " كان النظام الاقتصادي يعتمد بصفة أساسية على ري الأنهار الذي يفرض وجود نوع ما من الحكومة المركزية " ويحدد دياكانوف الظهور الأول للدولة المستبدة في القرنين الرابع والعشرين والثالث والعشرين ق. م ، أي عصر السلالة الأكدية ،وان التكوين النهائي للنظام الاستبدادي قد حدث في عصر سلالة اور الثالثة في القرن الحادي والعشرون ق. م. وبدأ الملوك يتطلعون للظفر بالكهنوتية المرتبطة اقتصادياً بأراضي التاج الجديدة والإقدام على ممارسة الأمجاد الدينية بل وحتى تاليه السلطة الملكية[٣٧].

وبحكم الحلف الديني – السياسي ونجاح الكهنة، في تبرير حروب الملك واستبداده، فان جزءاً من منح الملك كانت مخصصة للمعبد. حتى ان الارقام تشير إلى حيازتها مساحة هائلة من أراضي الدولة في لكش مثلاً تصل بين ربع إلى نصف المساحة الكلية للدولة[٣٨]. وقد أمكنهم التوسع بأراضي المعبد بطريق آخر غير طريق الحاكم وهو القرابين والنذور والاعطيات التي تعد سلوكاً دينياً واجباً خصوصاً للمخطئين. بالتالي تكونت من الكهنة طبقة ارستقراطية مستغلة لكن الاستغلال هنا مؤدلج. ووصل استغلالهم إلى حدود ترفية مجحفة أدت بالحاكم المصلح اوروكاجينا ان يوقفها في عهده.

جاءت مأساة تموز في وقت شعر فيه السومريون بمأساة نفسية – اجتماعية. وهذا ما يخفف من وطأة الحمل النفسي الذي يكون ثقيلاً على الإنسان ويحتاج إلى التفريغ عن طريق الطقس. وقد يكون اختراع الأسطورة من قبل الكهنة أسلوباً للتخفيف من نقمة الشعب ضد الحاكم وإحالة المأساة إلى ظاهرة طبيعية. يؤيد ذلك ان العديد من السلالات الحاكمة شهدت تمردات داخلية أودت بقتل الملوك. يعطينا دياكانوف مثلاً من عصر سرجون " راح جمهور أفراد المجتمعات يقفون غالباً أكثر فأكثر إلى جانب الأمراء المتمردين، ولذلك ردّ أنصار سرجون على ذلك بذبح الآلاف من السومريين"[٣٩].

استطاع السومريون هظم وتمثّل ثقافة دينية ساعدتهم في التكيف للطبيعة الرافدية المتقلبة والسياسية المستبدة. واذا كان الوجه الطاغي على هذه الثقافة هو المأساة، إلا ان وجهاً آخر هو الملهاة قد أدى دوراً لاستقبال حياة جديدة. الوجهان يتناوبان في شهور محددة من السنة محاكاة الخصب الطبيعة وجدبها. في الوقت الذي تجري طقوس النواح الجماهيري الحاشد على موت الإله تموز في فصل الصيف متماهين مع عشتار في نواحها عليه ونزولها إلى العالم السفلي في محاولة اغوائية لانقاذه، فان طقساً آخر يجري في الربيع تقام فيه الأعياد فرحاً بعودة وبعث تموز من عالم الجحيم بعد ان تشترط عليه زبانية جهنم تقديم البديل عنه.

كان الاعتقاد السائد هو ان الإله تموز مسؤولاً عن الخصب والنماء مع زوجته عشتار. وحالة موته على يد آلهة العالم السفلي كان يعني توقف الحياة عن الاستمرار. ويحصل هذا التوقف بشكل فعلي تماشياً مع ما تفرضه الأسطورة. فيمتنع الناس عن التزاوج ويتوقف الزراع وينشغل الجميع لأداء مراسم الحزن.

الثقافة هي بنت الطبيعة في سومر " بغض النظر عن كونها مؤدلجة " بينما سيكون الفضاء السياسي المستبد دافعاً لتوليد ثقافة التشيع.

(٧)

تقديس البطل في سومر الذي سيتطور إلى المولاة في الكوفة هو " طبيعة عقلية "[٤٠]. أصبحت موتيفاً / نموذجاً أولياً الى جانب موتيف المأساة انتقل بشكل لاشعوري إلى عراقيي الكوفة. تموز نفسه لم يتحول إلى اله مقدس لولا ان هناك تاليهاً للحاكم القديم. إذ تشير الدراسات الآثارية إلى ان تموز هذا كان في الأصل ملكاً وقد اختارته الآلهة الانثى انانا/ عشتار لأجل " الوهية البلاد " من بين جميع الناس لأنه محبوب من أمها وأبيها [٤١].ولا يعنينا في الوقت الحاضر ان يكون الملك وضع هذه الأسطورة لنفسه كي يتحول إلى اله، أم وضعها نسّاجوا الأسطورة من الكهنة كي يتقربوا إليه. وما يعنينا ان تموز أصبح مقدساً عند شعبه بصورة الملك - الإله الذي

ستجري عليه في عهود لاحقة طقوس حاشدة لأجل استعادته كونه أحد طرفي أخصاب الكائنات ومنح الحياة { ينطبيق ذات الأمر مع الملك كلكامش مع اختلافين هو صيرورته نصف اله وعدم تخليده بالطقس }.

سيتطور تقديس البطل عند الشيعة إلى " **موالاة** " الإمام لأنهم محكومون بالنص عند الغالبية منهم، والى " **مغالاة** " عند اقلية صغيرة تصل بعلي إلى درجة الإله كما فعل القدماء في سومر. بالرغم من ان الحاكم القديم كان مرهوباً كمستبد لكنه كان مرغوباً كقائد. يمكن التغاضي عن استبداده إذا أثبت مناقبية وأعمالاً خارقة. هكذا تحول كلكامش المستبد إلى بطل محبوب.

ما كان للشيعة ان يقدسوا علياً لولا ان هذا الرجل أحاطت به الفضائل " أو أحاط هو بالفضائل " من كل جانب. علي أصبح دائرة متكاملة. لم يصدّق البعض ان علياً من جنسهم فتحولوا من الموالاة إلى المغالاة ورفعوه إلى مرتبة الإله كما حصل مع السيد المسيح. هنا نجد حديثاً من النبي يتوقع لعلي بهذا الشأن المفرط، يقول " ان فيك لشبهاً من عيسى ابن مريم أحبته النصارى حتى أنزلته بالمنزلة التي ليست له، وأبغضته اليهود حتى بهتت أمه " [٤٢](٤٣).

يبرز علي كقائد في كل مجالات الحياة: في الحرب كفارس لا يشق له غبار، وفي الحياة الاجتماعية كحلال للمشاكل، وفي التنبؤ بالأحداث... وبعد موته يتحول إلى "مخلّص"، هذا المفهوم الذي سينتقل من علي أول الأئمة إلى المهدي آخر الأئمة. نفهم علي كمخلّص في الآخرة بكونه " قسيم الجنة والنار" حسب الفكر الشيعي، وانه شفيع المذنبين – الشيعة منهم بخاصة -. لكن كيف يكون علي مخلّصاً في الدنيا. نفهم ذلك من خلال الدعوات التي تطالبه بالعودة إلى الدنيا " الرجعة " لتفريج الأزمات والشدائد. فيلقب بـ" أبو الشدّات، حلال المشاكل ". يحصل الأمر متطابقاً مع السومريين عندما كانوا يدعون تموز بالعودة إليهم لإخصاب الحياة. هكذا نرى مع علي كيف يتم استدعائه يومياً من خلال الصلاة والدعاء مع ذريته. يردد الشيعة دائماً وبإفراط الصلاة على النبي ويعقبونها بالفرج " وعجل فرجهم وفرجنا معهم " ويكثرون من أدعية الفرج المواجهة للبلاء " الهي عظم البلاء وبرح الخفاء وانقطع الرجاء وضاقت الأرض ومنعت السماء.. ففرج عنا بحقهم فرجاً قريباً عاجلاً ".

ولكونه قائداً بطلاً، فان موته / قتله يصبح مأساة طويلة. ولا يتحول البطل إلى مأساة إلا لصعوبة فراقه أولاً ولمظلوميته ثانياً. تقوم قوة ظالمة بقتله فيتحول من القائد في الحياة إلى المخلّص بعد الموت، لكن المأساة الشيعية تتركز حول الحسين بسبب طريقة القتل الهمجية التي مورست ضده وضد أسرته وأنصاره. لذا فان الحسين يمثل قلب التشيع، لان التشيع يقوم أساساً على المأساة. ويخلد الحسين بطقوس يومية وسنوية يدور أهمها على المأساة يوم عاشوراء. وتنساب النواحات التموزية - العشتارية في الثقافة السومرية لتعمّق من المأساة الحاضرة.

فالحسين قتل في العراق وأهل العراق أقوام بكائية حزينة، لابد إذن من أن يخلد الحسين من خلال الطقس كما خلدوا تموز.

يتماهى الشيعة مع أمامهم الشهيد من خلال المظلومية، فهو مظلوم وهم كذلك. بدون مظلومية وبدون فضاء استبدادي لا يوجد شيعة ولا يعيش التشيع. لان دولة الإمام المخلّص لم تتحقق بعد (حتى بعد قيام الجمهورية الإسلامية في إيران لانها جمهورية أقامها البشر لغير المعصوم). ولازال الدعاء قائماً في رمضان حول قيام اليوتوبيا الزمانية – دولة المهدي- " اللهم انا نسألك دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله.." ودعاء استدعاء المهدي يتلى يومياً " اللهم كن لوليك الحجة.. ولياً وحافظاً... حتى تسكنه أرضك طوعاً ". المأساة لازالت قائمة إذن والشيعة في ضيق دائماً، وهم بانتظار المخلص كي يقيم العدل النهائي. انهم أقوام حزينة ينتظرون المخلص كل يوم، كل ساعة { يكررون الدعاء: يا مولانا يا صاحب الزمان الغوث الغوث.. العجل العجل... الساعة الساعة }.

الهوامش:

[1] كان مقرراً تناول الاصول الحضارية إلى جانب المكونات الثقافية لظاهرة التشيع. لكن ظهر في مرحلة من هذه الدراسة وجود بعض التعقيدات والصعوبات التي تحتاج إلى تقنية خاصة ورؤية عميقة تتجاوز الدراسة الحالية، خاصة وان البحث الحضاري يندغم فيه الاركيولوجيا والتاريخ بانسجام شبه تام .ربما كان للأصول الحضارية نصيب من البحث في محل آخر إذا ما سنحت الفرصة.

[2] ابن الاثير – عز الدين : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، ج٣ ، ص ٢٠٥

[٣] التاريخ يبدا من نقطة معينة معروفة للمؤرخ والباحث وقراء التاريخ . اما التاريخية فتغوص بشكل اعمق من التاريخ بحيث لا تعرف بداية الحدث، والميتاتاريخ تعوم على المستقبل بحيث لاتعرف نهايته. فالتاريخ هو الزمن والتاريخية والميتاتاريخ هي الزمان (الازل والابد) .

[٤] القرشي – باقر شريف : السيدة زينب رائدة الجهاد في الاسلام ، دار الثقافة ، ص ٢٤٩

[٥] الأساطير الرافدينية التي تتمحور حول المأساة عديدة، بل يمكن الاستنتاج بان المأساة جزء لا يتجزأ عن الاسطورة كتكوين ثقافي في العراق القديم. لكن اهم الأساطير التي تتحدث عن موت البطل بشكل مأساوي فاجع هي اسطورة نزول عشتار إلى عالم الجحيم السومرية، وأسطورة موت مردوخ في عيد الاكيتو البابلية. هذه وغيرها من الأساطير رسخت الحزن في الشخصية العراقية القديمة وجعلت من الممكن تقبل الواقع الاجتماعي والبيئي/ المناخي بشكل تكيف، لكن من جهة أخرى كان الحزن والثقافة المأساوية مؤدلجان لغايات سياسية هي خدمة الحاكم .

[٦] ابن الاثير : مصدر سابق ،ص ٢٠٥

[٧] هذه المعرفة تتأكد بشكل جلي بعد تأسيس الكوفة في عهد عمر. فظهر منهم الشغب على الحكام: سعد بن أبي وقاص، ثم عمار بن ياسر فالوليد بن عقبة والاشعري.. حتى قال فيهم عمر: اعضل بي أهل الكوفة ما يرضون بأمير ولا يرضاهم أمير (انظر شرح نهج البلاغة، ج١٢، ١٣٤).

[٨] Kroeber – A.L: Anthropology,Harcourt,braceand company,1948,p252

[٩] لم يستفد الإسلام من وجود ثقافة التوحيد وحسب وانما من الثقافة الاجتماعية كميراث عربي ينسجم مع الطرح الإسلامي لكنه يحتاج إلى " اتمام". من ذلك الأخلاق التي يقول فيها النبي: " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". التحول الذي طرأ على الأخلاق ينصب في اتمامها أولاً وتحويلها من مجرد ثقافة اجتماعية وتقليد متوارث إلى ثقافة دينية اعتقادية ثم اعادتها إلى الثقافة الاجتماعية ثانية.

[١٠] البراقي – حسين احمد : تاريخ الكوفة، المكتبة الحيدرية،٢٠٠٤ ،ص ٦٧

[١١] الشيرازي – حسن : كلمة الإمام الحسن،ط٦ ، مكتبة هيئة الامين، ٢٠٠٤،ص ٣٦

[١٢] ينقل ابو مخنف صورة الخذلان هذه فيقول: " ان المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل الى ابنه او اخيه فيقول: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر! انصرف. فيذهب به، فما زالوا يتفرقون ويتصدعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفساً. فلما رأى انه قد أمسى وليس معه إلا اولئك النفر، خرج متوجهاً نحو أبواب كندة، وبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثم خرج من الباب واذا ليس معه إنسان، والتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدله على الطريق. فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها طوعة (ابو مخنف:لوط بن يحيى: مقتل الحسين،دار الجمل ،٢٠٠٩ ،ص ٣٤).

[١٣] إذا ما عدنا إلى تقسيم الحسن نجد ثلاث مراتب هي:

- المحبة أو المودة بتعبير القرآن ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وهذه تكاد تشمل جميع المسلمين لا الشيعة فحسب. فأكثر الفرق الإسلامية تدين بحبها لأهل البيت دون الإقرار بالمرحلة التالية وهي:
- التولي والتبري: وتنطبق على الموالاة الآية المشهورة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وهي بدرجة الخير فالولاء للولي على الرغم من تغيره، لكنه مرغوب ومطلوب لأنه " خير" من عدم الولاء. اثبت الولائيون أو الموالين درجة الخير بعد مقتل الحسين إذ ندم الكثير منهم وقاموا بحركة " التوابين" ثم حركة المختار الثقفي وغيرها من الثورات.

- التشيع: وقد منحها الحسن مرتبة الشرف. الولاء يتحول هنا إلى التزام عملي بكل ما يصدر عن الإمام المعصوم من أهل البيت فالشيعي إمامي. وتشير إليه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ تقول الأخبار الواردة عن الفريقين ان بعض الصحابة سأل النبي عن "خير البرية" فاجاب وأشار إلى علي: هذا وشيعته... الخبر (لاحظ كيف يمزج القرآن بين الايمان والتطبيق العملي وقارن مع كلمة الحسن حول مفهوم الشيعي " ان كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت..." بقي ان نقول ان المحبة قلبية والولاء يترنح بين العاطفة والعمل اما التشيع فهو محبة وولاء والتزام بطاعة الإمام.

[١٤] الحموي – شهاب الدين ياقوت : معجم البلدان،دار صادر ،د.ت، ج٤، ٤٨٧

[١٥] نفس المصدر والصفحة

[١٦] سوسة – احمد : تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري، دار الحرية للطباعة ١٩٨٣، ج٢، ص ٤٠٨

[١٧] بوتيرو – جان : بلاد الرافدين، العقل ، الكتابة ، الالهة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩١ ص ١٢-٢٣

[١٨] راجع جعيط – هشام : الكوفة،نشاة المدينة الاسلامية، دار الطليعة ط٣ ،٢٠٠٥ ،هامش ص١٦١

[١٩] ن.م : ١٦٥

[٢٠] البراقي- تاريخ الكوفة، ١٧٠

[٢١] شتريك - مكسيمليان: خطط بغداد وانهار العراق القديمة ، ترجمة خالد اسماعيل ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦ ،ص ٢٤، ٤٣

[٢٢] المجلسي- محمدج باقر : بحار الأنوار،مؤسسة احياء الكتب الاسلامية، قم ج٩٧،ص ٤٠٣

[٢٣] سوسة:احمد: مصدر سابق، ص ٦٣

[٢٤] اريدو هي جنة السومريين أو جنة عدن حسب ويلكوكس. وفيها انشأ العرب الفاتحون في القرن السابع الميلادي إحدى جنائنهم الأرضية الأربع. (ويلكوكس :جنة عدن، ٥٠) اما نهر كوثى فيتفرع من الفرات وينسبه ياقوت إلى كوثى أحد أولاد ارفخشاد بن سام بن نوح .ومما يؤيد ان هذا النهر موغل في القدم وروده في النقوش المسمارية (معجم البلدان، ج٤، ٤٨٧) (شتريك: ن. م، ٤٩).

[٢٥] البراقي: مصدر سابق،ص ٢٠-٢٩

[٢٦] شتريك: مصدر سابق ،ص ٢٣

[٢٧] الجنابي - كاظم : تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والاثرية،مطابع الجمهورية،بغداد،ص ٤٣

[٢٨] ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة،دار الفكر،بيروت،ط٣ ،١٩٧٩ ج٣،ص ١٩٨

[٢٩] أبي مخنف – لوط بن يحيى: مقتل الحسين، منشورات الجمل،٢٠٠٩ ،ص ٥

[٣٠] ابن ابي الحديد: مصدر سابق ، ج١١: ٤٣-٤٤

[٣١] باقر- طه: كلكامش،منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية، ط٤ ،١٩٨٠ ،ص ١٢٥

[٣٢] الشواف-قاسم : ديوان الأساطير،دار الساقي ١٩٩٦-٢٠٠١ ، ج٤، ص ٤٢٩

[٣٣] حنون – نائل :عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة،دار الشؤون الثقافية،١٩٨٦ ،ص ١٣٦

[٣٤] الشواف –قاسم : مصدر سابق ، ج٣، ٥٤

[٣٥] الكتاب المقدس:نداء الرجاء ،شتوتغارت ،المانيا ،ترجمة فادايك والبستاني، حزقيال: ١٣- ١٥

[٣٦] ابن النديم-محمد بن اسحق: الفهرست،طبعة طهران ١٩٧١ ، ص ٣٨٧

[٣٧] مجموعة باحثين: العراق القديم، ترجمة سليم التكريتي، دار الشؤون الثقافية ١٩٨٦ ، ٢٨٢-٣٠٥

[٣٨] نفس المصدر: ص ٢٦٧

[٣٩] نفس المصدر:ص ٢٩٤

[٤٠] القول بان تقديس البطل طبيعة عقلية أي انها ليست مقتصرة على عراقي سومر والكوفة. فكل المذاهب والأديان لها أبطالها، واتباعهم يقدسونهم كما فعل السومريون وكما يفعل الشيعة. الفارق مع هذين المجتمعين ان التقديس يكون مصحوباً بالطقس " وهي طبيعة عراقية " ما يؤدي إلى خلوده بعملية تجديد ذكراه. فالسنّة مثلاً يقدسون الصحابة ويعتبرونهم جميعاً "عدول" وهي درجة تقرن بالعصمة عند الشيعة. الفرق ان السنة لا يقيمون طقوساً حول الصحابة وعندهم أحاديث تؤيد ما يذهبون إليه.

[٤١] (كريمر - صمؤيل نوح : طقوس الجنس المقدس،ترجمة نهاد خياطة ، دار علاء الدين،ط٢ ،ص ٨٤

[٤٢] ابن ابي الحديد:مصدر سابق، ج٤، ١٠٥

[٤٣] بالنسبة لي أشعر بالتعاطف مع الغلاة الذين أفرطوا بحب علي إلى درجة تاليهه. وهذا لا يعني انهم على منهج صحيح، لكن عقولهم – إذا ما دققنا النظر - لم تستوعب وجود إنسان يمثل المزايا التي تمتع بها علي آنذاك. وهم لم يصلوا إلى درجة من العلم تؤهلهم للتفكير بموضوعية. البعض يرى ان الغلاة هم من أصول إيرانية " الموالي " وهؤلاء ورثوا فكرة عبادة الملوك واتصافهم بصفات الإله من حضارتهم القديمة، البعض الآخر يرى انهم من مسيحي اليمن الذين دخلوا الإسلام وظلوا على ميراثهم القديم الذي كان يؤله السيد المسيح فحولوه إلى علي (عبد الله فياض: تاريخ الإمامية،ص ٨٨) والرأي الأخير يذهب إليه ابن أبي الحديد أيضاً مع إضافته لليهود (شرح النهج، ج٧، ٥٠). ويمكن ان تصح مثل هذه الآراء، لكن لماذا نبتعد كثيراً عن المكان، فقد سبقت سومر تلك الحضارات في ظاهرة عبادة البطل. والأرجح ان هذه الظاهرة انتقلت إلى عراقي الكوفة كما انتقلت إلى باقي الحضارات من الأصل السومري عن طريق الاتصال والاحتكاك الحضاري.